

توطين العلم للقضاء على الفقر اليمن أنموذجاً

د. موزه بنت محمد الربان

مقدمة

إن الفقر يمكن القضاء عليه في الظروف الطبيعية إذا وُجدت الإرادة الصادقة والتخطيط السليم. فكم من الدول في عالمنا المعاصر، كسنغافورة مثلاً، كانت فقيرة، وأصبحت من الاقتصادات القوية، وقد تغير وضع مواطنيها من الفقر المدقع إلى الغنى والحياة الكريمة.

وفي يومنا، تسعى الكثير من المؤسسات الدولية والخيرية لتقديم المساعدات، من طعام وكساء للفقراء في العالم، أو تقديم مساعدات على شكل مشاريع صغيرة للفقراء. وأعلنت الأمم المتحدة أن القضاء على الفقر هو من أهم أهدافها، وقد خصصت يوم السابع عشر من تشرين الأول (أكتوبر) من كل عام يوماً عالمياً للقضاء على الفقر. كل هذا جهد مشكور ومقدّر، ولكن مثل تلك المساعدات وحدها لا تكفي كما هو بادٍ. فالأرقام عن الفقر حقيقةً أرقام مخيفة. فبحسب تقرير البنك الدولي، عام 2016، هناك حوالي 767 مليون شخص يعيشون على أقل من 1.90 دولاراً في اليوم¹. وعدد الفقراء في الواقع هو أكبر من ذلك الرقم بكثير، إذا نظرنا إلى تعريف الفقر على أنه عدم القدرة على الحفاظ على المستوى الأدنى من المعيشة، أخذاً بعين الاعتبار الحياة العصرية وما فيها من تعقيدات العيش. وإننا نرى أن توطين العلم في المجتمع الفقير مهمٌ، بما سبق من أمثلة في التاريخ، لكي ينهض بعون الله من الفاقة إلى الاستغناء وحتى العطاء. وسياستنا في هذا الإطار تقوم على البناء على ما هو موجود، وعلى الاعتماد على الذات، وخططنا ومشاريعنا تُبنى على:

- توطين العلم ونشر الثقافة العلمية، وبالتالي تمكين المجتمع العلمي من المساهمة في حل مسألة الفقر.
- ومبدأ ما يمكننا أن نطلق عليه اسم "العنقودية"، إن صح التعبير، وهو يعني الجهات أو الأفراد أو المهن التي تكمل بعضها البعض لإنجاز أي مشروع.

وهناك قصة ملهمة وردت في كتب السنن² تلخّص ما سلف، وفيها الكثير من العبر، وهي:

أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ لَكَ فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ بَلَى جَلِسْتُ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَدْخُ نَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ، قَالَ أَتَيْتَنِي بِهِمَا، قَالَ فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا أَخَذَهُمَا بِدَرَاهِمٍ قَالَ مَنْ يَزِيدُ عَلَي دَرَاهِمٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. قَالَ رَجُلٌ أَنَا أَخَذَهُمَا بِدَرَاهِمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدَّرَاهِمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ وَقَالَ اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قُدُومًا فَأْتِنِي بِهِ. عندما جاءه بالقدوم شد النبي بيد الشريفة عليه عصا، وقال: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَلَا أَرَاكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فَجَعَلَ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ فَقَالَ اشْتَرِ بِبَعْضِهَا طَعَامًا وَبِبَعْضِهَا ثَوْبًا

ثُمَّ قَالَ هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ وَالْمَسْأَلَةُ نُكْتَةٌ فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِذِي فَقْرٍ مُدْفِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْطَعٍ أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ³.

هذه قصة عظيمة، فذاك الرجل الفقير كان يملك قدرات، كان يملك قوة جسدية وإمكانيات مادية، ولكنه يفتقر للتخطيط وحسن التدبير، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يتصدق عليه لأنه رأى فيه تلك القدرات، فطلب منه أن يجمع إمكانياته ويؤسس لمشروع إنتاجي. ثم ساعده، كممثل للسلطة، في استكمال أدواته (شد العصا)، وهذه معرفة تقنية تعلمها الرجل بمساعدة خبير. وقد تحول الرجل بعد ذلك من متسولٍ إلى رجل مستغنٍ مادياً ومعنوياً. وقد كان بالإمكان التصديق على هذا الفقير بمبلغ من المال، ولكن هذا المبلغ سيستهلك في يومه، وسيعود الرجل في الغد متسولاً، وهذا ليس حلاً ولا يليق بكرامة الإنسان، وقد بين عليه الصلاة والسلام أن المسألة لا تصلح لمن لديه القدرة على تجاوز الحاجة والفقير. كما أننا نستلهم من تلك القصة، أن المشاريع الاستراتيجية الإنتاجية يلزمها وقت وصبر لتثمر. فمن هذا التوجيه النبوي بنينا رؤية للقضاء على الفقر بتوطين العلم في المجتمعات الفقيرة، وبناء القدرات فيها، والاعتماد على الذات، وليس فقط بالمساعدات والصدقات.

واليمن، هذا الجزء العزيز من جسد الأمة العربية والإسلامية، كان يلقب بالسعيد لوفرة الخيرات فيه، وقامت فيه حضارات. ولكن اليمن يعاني اليوم من الخوف والجوع والمرض، ويعتبر من أفقر دول العالم، رغم إمكانياته الهائلة، في الأرض والبحر والموقع المتميز، وفوق هذا كله، إن عدد السكان معظمهم من الشباب وفيهم الذكاء الفطري. للأزمة الإنسانية في اليمن جوانب متعددة، منها انتشار الأمراض وتهالك المشافي وضعف الكادر الصحي والأجهزة الطبية والأدوية، وإن انقطاعات التيار الكهربائي سببت شللاً في حركة الاتصالات والمصانع والمشافي. وكذلك الأزمة الخانقة في المشتقات النفطية شلّت حركة المولدات والاستخدامات المختلفة. كما سببت في ارتفاع أسعار المواد الغذائية والاستهلاكية الضرورية. وفوق هذا كله، مع الحسرة، هناك انقطاعات متكررة في المدارس والجامعات والمعاهد التعليمية بضعف شديد في الوسائل التعليمية والمستوى العلمي.

كل هذا وأكثر لا يخفى ما يترتب عليه من انعكاسات اجتماعية واقتصادية، مما يستلزم وقفة جادة وفورية لمساعدة هذا الشعب المنكوب، وليس فقط تقديم المساعدات الإغاثية.

من فضل الله، إن اليمن فيه مؤسسات تضم الكثير من الإمكانيات البشرية والمادية والمعنوية وفيه خبراء. وكذلك يوجد هناك عدد كبير من الجامعات والمعاهد وجمعيات المجتمع المدني، بالإضافة إلى المؤسسات الخاصة والعامة، فهناك حاملو الشهادات العليا وهناك الباحثون والمهندسون والأطباء وعلماء الاجتماع وغيرهم. كما توجد دراسات كثيرة، وقد كتبت تقارير بهدف التنمية في مختلف الميادين من داخل اليمن ومن مؤسسات وهيئات عربية ودولية، ولكن للأسف، معظمها لم تُطبّق ولم يُستفد منها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يمتلك اليمن إمكانيات كبيرة ومتنوعة في الأرض وطبيعتها والمناخ ما يؤهله لإعادة الزراعة لسابق عهدها، وكذلك في البحر لإعادة الإنتاج في الثروة السمكية.

البداية من حضرموت

وبعد، فقد رأينا أن نبدأ بمحافظة واحدة نعتبرها نموذجاً يمكن تكراره في المحافظات الأخرى. وهذا ما قمنا به بالتعاون مع جامعة حضرموت في المكلا بعد إبرام اتفاقية بين الجامعة ومنظمة المجتمع العلمي العربي عام 2016. وأسسنا معهم جمعية حضرموت العلمية الزراعية، لتكون حلقة وصل بين الجامعة وقطاع الزراعة الواسع، بما يشمل من بستنة وتربية مواشٍ ودواجن وإدارة للمياه واستصلاح للأراضي، وللقيام بالتدريب والتوعية وجمع المعلومات ونشرها، وغير ذلك.

تعتبر حضرموت من أكبر المحافظات اليمينية، كما أنها تمتلك الكثير من الإمكانيات البشرية والمادية، وفي استقرار نسبي، لذا اخترنا أن تكون البداية منها، ورؤيتنا كانت أن نبدأ بتطوير القطاع الزراعي وقطاع الثروة السمكية وما يرتبط بهما مثل المياه النقية والطاقة، والصحة والتعليم وبناء القدرات. ولتوضيح الفكرة، هناك أراضٍ زراعية ومزارع في المحافظة، يقوم عليها الفلاحون غالباً بوسائل تقليدية فيها هدر لمياه الري، واستخدام الكثير من الأسمدة الكيماوية والمبيدات، مما يؤثر على صلاحية التربة وجودة المنتج والصحة العامة وتلوث المياه الجوفية. وبعد الحصاد، يتلف الكثير من المحصول بسبب عدم توفر وسائل التخزين والنقل المناسبة، وكذلك التوزيع والتصدير، والنتيجة حقيقةً تكون قلة المردود المادي للزراعة، مما يؤدي بشكل صريح إلى عزوف الشباب عن الزراعة وتفضيلهم للوظائف في المدن. ومثل ذلك يقال في قطاع صيد السمك. ولكننا سنركز هنا على القطاع الفلاحي لغرض الاختصار. وهاكم أهم النقاط:

- بداية يجب التعرف على الواقع، الإمكانيات والمشاكل التي يعاني منها القطاع، للبناء على الموجود ورسم خطط تناسب الوضع. فهذا بدوره يستلزم وضع خطة للمسح وتدريب القائمين عليه وجمع وحفظ البيانات وتحليلها وكتابة التقارير عنها، يعني ذلك بناء قدرات متخصصة وتجهيز مركز للمعلومات وهنا يأتي دور الجامعة.
- لتطبيق تقنية مثل الري بالتنقيط، أو الزراعة تحت الصوب، فهذا يعني مركز تدريب زراعي يقوم فيه مهندسون زراعيون ومدربون بتدريب الفلاحين، وبالتعاون مع الجامعة. كما يعني ذلك وجود تجار يستوردون المواد والأدوات اللازمة، وورش تقوم بالبناء والتركيب فيها عمال تدريبوا على القيام بذلك.
- كل نوع من النبات يحتاج عناية خاصة، يحتاج لمغذيات معينة من التربة، فإن لم توجد في تربة ما لا بد من إضافتها إليها، فنحتاج إذاً لمختبر تحليل للتربة والمياه المستخدمة وتحديد نوع وكمية تلك المغذيات والأسمدة المضافة، ويقوم بذلك خبراء زراعيون.
- وقد تصاب النباتات بأمراض وآفات، لأجل ذلك نحتاج لتقليل فرص الإصابة ومكافحتها بالطرق الطبيعية والعضوية قدر المستطاع من أجل المحافظة على الصحة العامة للإنسان والبيئة. مرة أخرى نحتاج للخبراء والباحثين الزراعيين لتطوير مثل هذا.
- بعد الحصاد، نحتاج إلى مخازن مبردة لحفظ المحصول لفترات قصيرة قبل نقله، وهذا يحتاج لبناء تلك المخازن، وهنا يأتي دور المهندسين ومصادر الطاقة المتجددة، مثل الطاقة الشمسية، خاصة في الأماكن البعيدة، ويأتي دور الجامعة مرة أخرى في تطوير مثل ذلك، كما يستلزم وجود تجار يوفرون المطلوب، وورش، ومهندسون يقومون بالإنشاء والتركيب والصيانة.

- التغليف بشكل جيد من المهام الأساسية، وهي تتطلب ورشاً ومتخصصين.
- ثم نقل المحاصيل إلى الأسواق، وهذا يستلزم قطاع التجارة والنقل والموصلات والتصدير.

ربما يظن القارئ الكريم أن مثل هذه المنظومة الإنتاجية بعيدة المنال أو مستحيلة التحقق، ولكنه للحق، والحق يقال، إن مثل هذه المنظومة موجودة في معظم البلاد وهو أمر بات عادياً، في البلاد المتقدمة وغيرها. ومن أهداف المنظمة، وما هو متضمّن في سياستنا المذكورة سالفاً، والمستلهمة من قصة الرجل الفقير مع الرسول صلى الله عليه وسلم، هو إزالة ذلك الحس باليأس، الحس المحيط والمعيق للتحرك. ويظهر من هذا المثال المصغّر، أن تطوير قطاع مثل الزراعة يعني تطوير قطاعات عدة في نفس الوقت وهذا ما كنا كذلك نقصده بمبدأ "العنقودية". ولكي تقوم الجامعة بدورها، يجب دعم تطوير المكتبة والخدمات الإلكترونية وتطوير المختبرات ورفع مستوى الباحثين والأساتذة وإتاحة الفرصة لهم لمزيد من الدراسات والمشاركة في المؤتمرات العالمية والتعاقد مع أساتذة متميزين من الخارج. وللتأكيد، فهذه الرؤية ليست صعبة التنفيذ، ولا تتطلب الكثير من المال بقدر ما تتطلب الإيمان والإرادة لتحقيقها بكل صدق وشفافية، وبعيداً عن الفساد. وقد بدأت بها منظمة المجتمع العلمي العربي، وقد لاقى استجابة طيبة من جامعة حضرموت، وعدد من مؤسسات المجتمع المدني في حضرموت، وعلى رأسها مؤسسة العون. وإن الباب مفتوح لكل من يريد أن يجعل له بصمة وأثراً طيباً في أرض اليمن، لتدور عجلة الإنتاج والتوظيف.

الدوحة، تشرين الأول 2017

¹ مع تراجع بسيط في أعداد الفقراء عن السنوات السابقة.

² سنن ابن ماجه وسنن أبي داوود.

³ وفي البخاري ومسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن يخطب أحدكم حزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه"، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه ظير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة".